وزارة الثقافة

أبو جلدة

تأليف: حلمي أبو شعبان

مركز الحرمان على التراث

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

أبو جلدة

تأليف: حلمي أبو شعبان

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٣٤
عن مطبعة الجامعة الإسلامية في يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: حلمي أبو شعبان
اسم الكتاب: أبو جلدة
الطبعة الأولى: ١٩٣٤ عن مطبعة الجامعة الإسلامية في يافا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: رشيد عِناية - نور عرفات
تصميم الغلاف: فاطمة حسين
صورة الغلاف: أبو جلدة كما ورد في النسخة الأصلية للكتاب

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

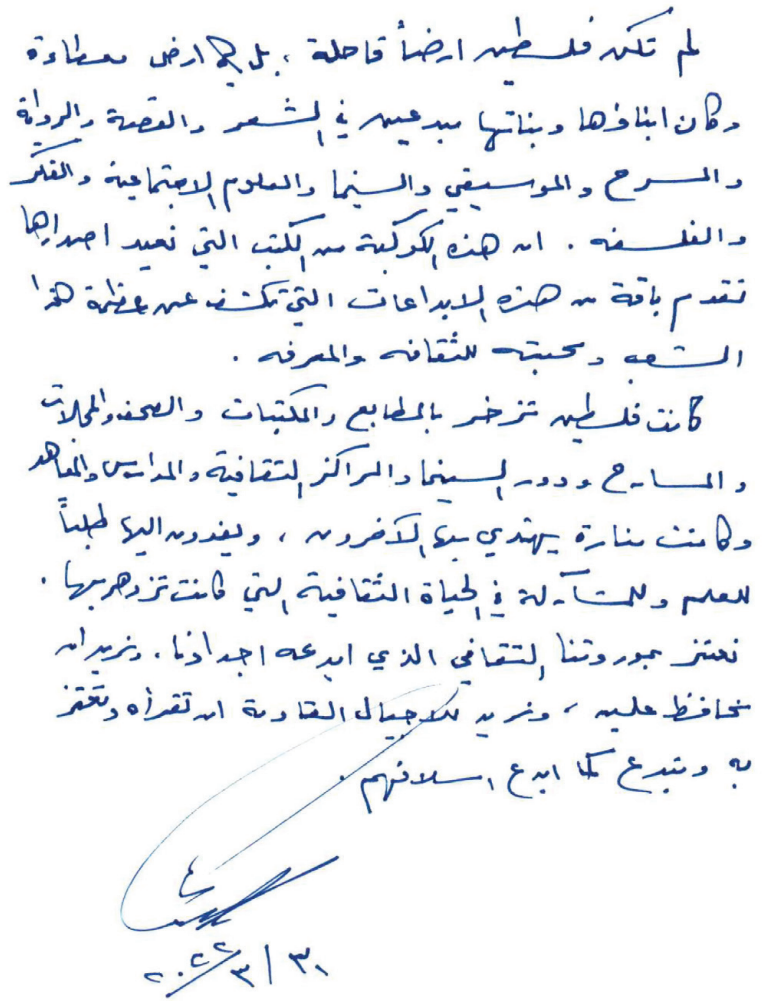
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة ، بل كانت ارض عطاء
وكان ابناؤها وبناتها سبّاقين في الشعر والقصة والرواية
والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر
والفلسفة . انه لهذا الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها
تقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا
الشعب وحبه للثقافة والمعرفة .

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات
والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد
وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون ، ويفدون اليها طلباً
للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها .
نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا . ونريد ان
نحافظ عليه ، ونريد لاجيالنا القادمة ان تقرأه وتعتز
به وتبدع كما ابدع اسلافهم .

٢٠٠٤/٣/٣٠

ابو جلده ...

بقلم

حلمى أبو شعبانه

«كان عليه الصلاة والسلام يمزح ولا يقول الا حقا»

حقوق الطبع محفوظه

١٩٣٤

مطبعة الجامعة الأمريكية

غلاف النسخة الأصليَّة من الكتاب

المؤلِّف حلمي أبو شعبان

مقدِّمة الكتاب

لم اقـرأ في حياتي «مقدمة» لكتاب...!

ولا أدري كيـف أسـتطيع أن أكتـب مقدمـة هـذا الكتيـب الـذي أعـده كمقدمـة للكتـاب الـذي حدثنـي عنـه «الصحـافي الصغـير».. والـذي سـماه «لأجـل بلفـور»...

فهـو كتاب صغير متواضع...

دفعـه إلي «صحفي صغير» متواضع...

فأرجـو أن يتقبله القارئ...

«خير الكلام ماقل ودل»

حلمي أبو شعبان

مُعجَب!

لا أدري...!

شعور غريب... تولاني عند ما كنت اقرأ عن «أبي جلدة»!

عجبت من الصحف التي تردد اسم «أبي جلدة» وتهتم بأخباره أكثر من اهتمامها، برجال السياسة، وأخبارهم!

وعجبت من باعة الصحف الذين ينادون: «أخبار أبو جلدة» «حوادث الملاك أبو جلدة»!

وعجبت من الباعة المتجولين الذين ينادون على التفاح..

تفاح أبو جلدة العال يا تفاح!!

مال أبو جلدة يا رطب!

عنب أبو جلدة الله ينصرك يا عنب!

وأعجب من ذلك أن الجندي البريطاني إذا «عطس» قال «الخبثاء» ولو في سرهم.. «أبو جلدة» بدلا من «يرحمكم الله» أو «أثابكم الله»..

وإذا ثار دمه السكسوني على أصحاب البسطات أو سائقي السيارات... سمعتهم يرددون اسم «أبو جلدة»...

وهكذا ترى «أبو جلدة» ملء الأسماع.. وإن لم يكن يملأ الأبصار..

* * *

من هو هذا الرجل الذي أجلسته الصحف على «العرش»؟!

من هو هذا الرجل الذي قفز مرة واحدة من «الزنزانة» إلى «منصة الملك»؟!

لماذا هذا الإعجاب الذي يبديه الناس في المجالس والمنتديات؟!

* * *

خلوت إلى «عفريتي» فضحك مني وقال: ألا تعجب من نفسك؟!

قلت: لماذا؟

قال: لأنك أنت أيضا معجب بأبي جلدة!!

قلت: صحيح!

وصببت على نفسي «دوش» ماء بارد..

ولكن لماذا أنا معجب.؟!

أبو جلدة.!!

رجل فلاح اسمه محمد المحمود من قرية «طمون» بجوار نابلس اعتقلته السلطة وهو متلبس بجريمة نكراء.. فأودعته السجن..!!

هرب «أبو جلدة» من السجن وأصبح في نظر العدالة مجرما فارا..

ولك أن تسأل عن سر إعجابي. واعجاب الشعب، بهذا المجرم الفار

وقبـل أن أجيبـك أريـد أن أسـألك:

- ألسـت معجبا أنت الآخر.؟!

- بلا شك..

ثـم تعـال نتحـدث عـن الواقـع؛ ألم تعجـب بـه الصحـف الأوروبيـة والآسـيوية؟ ألم يبلـغ صيتـه أقـاصي المعمـورة؟!

ألم يعجب به اليهود؟!

إذن.. لا بـد مـن «سر» لهـذا «الاعجـاب» فـإما أن يكـون «أبـو جلـدة» سـاحرا.. أو جـاء يحمـل عصـا مـوسى.. أو أن للرجـل (مزايـا).. قلبتـه في مـدة وجيـزة، مـن مجـرم فـار، إلى «بطـل» يتحـدث عنـه النـاس...

وأنـا معجـب كما أنكـم معجبون! فدعوني أتحدث لكم عن سر إعجابي!

* * *

عفريتي!

ألست بحاجة لتقديم «عفريتي» إلى القراء.. فكما أن للشاعر «شيطانا» كذلك، للكاتب «عفريت»! وقرائي يعرفون مدى تأثير عفريتي على قلمي.. فأستميحهم العذر إذا احتجت إليه، واستعنت به في مهمتي الشاقة فهو عندي جاسوس «لاسلكي».. ومنجم وكل شيء.. ولا طاقة لي على بعده.

***

والآن.. ألا تخبرني يا «عفريتي» عن هذا الذي ذاع صيته، وأصبح حديث الصحف والرأي العام؟!

قال: أتعني أبا جلدة؟!

قلت: نعم.

فضحك «عفريتي» ضحكة طويلة وقال: لا، لا أريد أن أحدثك عنه لأن الرجل «خطير»!

قلت: وما وجه «الخطورة» فيه؟! وهبه كذلك، فخطره على بني آدم وليس على «العفاريت»..!

قال: أتريد مني الصدق وكل الصدق ولا شيء إلا الصدق؟! أنا الآخر معجب بالرجل فدع حديثه الآن، فسأجمعك به بدون أن تشعر.. وسأرفع «إعجابك» به عدة درجات.

واختفى «الملعون»!

نُزهَة

هكذا الدنيا..

حتى «عفريتي» الذي اعتمدت عليه، تركني في حيرة، ولم يشأ أن يساعدني في مهمتي الصحفية؛ فغشي نفسي ما غشيها من الحزن... ومن عادتي أن أسافر عندما أحزن؛ بقصد النزهة.

وكانت صدفة، هي خير من ميعاد! فإن صديقي الذي اعتدت أن أرافقه في نزهاتي؛ أخذني معه في سيارته الخاصة، مع زمرة من الأصدقاء.

وانطلقت السيارة الصغيرة الجميلة، ولكن لا أدري إلى أين في الطريق جنود! شرذمة هنا، وكتيبة هناك!

قلت: ما هذا يا صديقي؟

قال هذه جنود «سبايسر»

قلت: يعيش «سبايسر» أوهل وضعها في الطريق للمحافظة على المسافر من؟

قال: لا.

قلت: إذن ما سر وجودها هنا؟

قال: سل «أبا جلدة!

أبو جلدة؟!! أبدا يتبعني ظل الرجل أينما كنت!

دعنا يا عزيزي من أبي جلدة، فقد مللت حديثه؛ وهربت من سماع قصته. فهل تخيفني باسمه؟ اصدقني الخبر ما هذه الجنود المبعثرة هنا وهناك؟!

قال: أنا لا أمزح أنت في طريق أريحا وهذه الجنود الإضافية التي أرسلتها إدارة الأمن العام لتعقب «أبي جلدة»

قلت: عجيب!

قال: وإن عشت ترَ العجب!

بدأت صورة الرجل تكبر أمام عيني؛ وبدأت أتصور أبا جلدة رجلا جبارا تعنو له الرقاب، وترتعد من رؤيته الفرائص!

وصرت أتمتم: الحمد لله أننا الآن لا نخاف هذا الرجل.. فإن حولنا جنودا.

بسم الله الرحمن الرحيم... قل هو الله أحد.. الله الصمد.. لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد.. ومن قرأ ««الصمدية» فهو آمن... فضحك صديق «خبيث» من الراكبين معنا وقال: أتريد أن أقطع لك «الخوفة»؟!

فأغرق بقية الأصدقاء في الضحك، وأخذ أخبثهم يقص عليّ قصص الأشقياء.

قال: اسمع يا حضرة الصحافي الصغير!

أفندم!

- من مقتضيات الصحافة. أن تعرف وأنت تكتب عن عصابة تاريخ العصابات، أو نتفا منه، فإن الأناضول كانت قبل الحرب العامة مرتعا للعصابات، التي روعتها حينا من الزمن.

وإنما هناك فرق بين عصابات الأناضول وبين غيرها.!!

فرئيس العصابة كان محترما هنالك من الشعب، يتمتع بمركز أعظم من مركز الوالي أو الحاكم، وبحسبك أن أحدا كان يقول أنا فلان رئيس العصابة الفلانية، حتى يسرع أهالي القرية التي هو فيها لتقبيل يديه؛ لا خوفا ورهبة، ولكن حبا وإخلاصا.

قلت: ولماذا؟

قال: لأن العصابات كانت تنهبها من الأغنياء وتوزع على الفقراء فقد كانت مهمتهم هناك أخذ الزكاة بالقوة وبالطبع لهم «كومسيون» التحصيل وكان بعضهم شديدا، يقتلون خصومهم خفية من دون أن يشعروهم بالرجل المسلح.

لم يكن أمينا إذا سار هناك، لأن الشقي يتصيده تصيدا ولا يقف أمامه وجها لوجه إلا في حوادث هامة.

قص علي صديق ممن حضروا ذلك العصر الفوضوي قال: كانت هناك وليمة دعي إليها عدد كبير من الجند والضباط ولما علم بها الأشقياء خف أربعة منهم بلباس الجند ودخلوا في صفوف المدعوين.

وبعد أن قاسوا درجة شجاعة الجنود الموجودين شلح الأربعة جميع المدعوين وجها لوجه، وأخذوا أسلحتهم؛ وقتلوا الضابط وكبلوا الباقين وعادوا كأنهم لم يفعلوا شيئا...

ومن الجميل أن تعرف أن الجنود الذين وكل إليهم تعقيب هؤلاء الأشقياء كانوا يختبئون ويقفلون عليهم الأبواب خوفا وفرقا...

ومع ذلك، فأشقياء الأناضول كانوا أذكياء فقد عرفوا كيف يأسرون قلوب الأهالي، فراحوا يوزعون (الهدايا) في الأعياد على الفقراء ولذلك طال أجل تلك العصابات في الأناضول.

ما قال

أنـا لا أصـدق كل مـا يقـال عـن أبي جلـدة.. ولكنـي أرى لزامـا عـلي أن أنقـل للقـراء أحاديـث النـاس عنـه والقصـص التـي يروونهـا عـن شـجاعته وإقدامـه!

اسـتمع إلى هـذا الشـيخ الهـرم وقـد جلـس يعبـث بلحيتـه ويحدثنـي عـن قوتـين مـن قـوى البوليـس الإضافيـة خرجتـا لتعقـب (البطـل) أبي جلـدة وعصابتـه فالتقـت القوتـان في موضـع مـن الجبـال المحيطـة بنابلـس.. وظـن كل فريـق أن الفريـق الآخـر هـو عصابـة أبي جلـدة فتبادلـت القوتـان إطـلاق الرصـاص.. بينـما كان أبـو جلـدة يـشرف عـلى المعركـة مـن بعيـد ويـرى بمنظـاره المشـهور أعـداءه يتسـاقطون صرعـى في الميـدان بأيديهـم!

* * *

وأجلـس إلى آخـر مـن المعجبـين بـأبي جلـدة فيحدثنـي أن أبـا جلـدة داهـم قـوة مـن قـوى البوليـس المعـدة لتعقبـه وأرغمهـا عـلى تسـليم الأسـلحة. وبعـد أن عهـد إلى زميلـه صالـح العديـلي الملقـب بالعرميـط حراسـة أفـراد القـوة ذهـب إلى التلفـون وطلـب نمـرة مركـز بوليـس نابلـس.

- هالو!

- هالو

- حضرتـك مدير البوليس؟

- أيوه.. حضرتك مين؟

- أنـا (محسـوبك) أبـو جلـدة جئـت هنـا لزيـارة نقطـة البوليـس وقـد تركـت لـك فيهـا هديـة!؟

وذهـب مديـر البوليـس ليسـتلم (الهديـة) فوجـد الجنـود موثقـي الأيـدي بغـير سـلاح.

أمـا أبو جلدة فقـد توغل في الجبال واختفى عن الأنظار.

ومـن أغـرب مـا سـمعت عـن (أبي جلـدة) أنـه كان مـرة مدعـوا إلى وليمـة في إحـدى قـرى نابلـس؛ فلبـى الدعـوة وأخـذ يـأكل مـع مديـر البوليـس عـلى سـماط واحـد، دون أن يشـعر بـه أحـد مـن المدعويـن!

ومـر أبـو جلـدة مـرة عـن (عاصمتـه طمـون) فوجـد: قطيعـا مـن الغنـم اسـتاقه أمامـه دون أن يرفـع أحـد مـن الخرفـان صوتـه بالاسـتغاثة أو يقـول (بـاع)!

وأرسـلت السـلطة قـوة مـن البوليـس لتعقـب العصابـة، فعـثرت عـلى القطيـع وافتقـدت أربعـة خرفـان، أغلـب الظـن أنهـا انضمـت إلى العصابـة!

هـذا بعـض مـا يتحـدث بـه النـاس عـن أبي جلـدة وأغلـب الصحـف في فلسـطين تمـلأ أعمدتهـا في أكـثر الأحيـان بأخبـاره وحـوادث. ولسـنا نثـق بـكل مـا يقـال عنـه وإنمـا أوردنـا ذلـك عـلى سـبيل التفكهـة وإطـلاع القـراء عـلى بعـض مـا يقـال.

أبو جلدة!

فـوق صخـرة جميلـة، تسـلل عـلى أريحـا، كنـت جالسـا أنتظـر أصدقـائي الذيـن ذهبـوا إلى قريـة «النويعمـة المجـاورة.

أمامـي مـروج خـضراء. بديعـة التنسـيق! ومسـاحات واسـعة مـن المـوز وبـين هـذه وتلـك «بحـرة لـوط» الهادئـة الصامتـة! فتخيلتهـا حزينـة باكيـة لأن الأيـدي العربيـة لم تعـرف قيمتهـا فتهاونـت في اعطائهـا للأيـدي الغريبـة!!

وشـعرت أني أجهـدت نفـسي كثـيرا واني في حاجـة إلى الراحـة، فاضطجعـت عـلى الصخـرة.

رأيت رجلا أمامي يأخذ بزمام فرسـه وينادي كلبه «معتوق»!!

أنـا أعـرف الرجـل! ولكـن كيـف؟! هـل رأيتـه وجهـا لوجـه؟! كلا! ولكنـي عـلى كل حـال أعرفـه.

جـاء بقـربي وقـال: السـلام عليكـم وجلـس، فـرددت التحيـة بأحسـن منهـا وأخـذت أتفـرس في وجهـه ولكنـه مـد يـده إلى بضعـة جرائـد كانـت في يـدي وقـال:

«ما هذه الجرائد وألا تزال تشـتغل في «أبو جلدة»؟!

وأحدقـت في الرجـل مـرة أخـرى لأتبينـه ولاحـظ هـو الارتبـاك باديـا عـلى وجهـي فضحـك وقـال: إنـك تـكاد تعرفنـي.

أنا أبو جلدة...!

ارتعت وفزعت! لا من منظر الرجل، ولكن من اسمه، فظهر لي «عفريتي» وقال:

- تجلد!

قلت: أهلا وسهلا بالعم أبا جلدة! أنا محسوبك «الصحافي الصغير»! لي الشرف بمعرفتك.

قال: «أنت الصحافي الصغير»؟!! إنك حقا لا تزال صغيرا لقد قرأت مقالاتك في «الجامعة الإسلامية» وكنت أتخيل أنك من متعاطي الحشيش والأفيون والمورفين.. ومن زبائن (الجوزة). والذي جعلني أعتقد ذلك أسلوبك فسامحني.

قلت: العفو!

* * *

استأنف أبو جلدة حديثه:

هذا (معتوق) اسمعت عنه؟! إنه كلبي الأمين أعتمد عليه أكثر مما أعتمد على العصابة.. وارتسمت على وجهي علامات استعجاب، لاحظها أبو جلدة حالا! فقال متمما كلامه:

- لا تعجب! فهو الرفيق الوحيد الذي أعتقد بإخلاصه! هو رفيقي وأنيسي وسميري إذا ضاقت بنا بقعة، انتقلنا إلى بقعة أخرى، بعيدا عن أعين الرقباء. أنام فيسهر على راحتي وأسير فيترقب حولي ويحرسني.

تعـال تعـالى «يـا معتـوق»!

وجـاء معتـوق طائعـا، ولكنـه مـا كاد يصـل إلينـا وحتـى أخـذ يمـزق الصحـف التـي كانـت معـي وينثرهـا قطعـا في الهـواء!!

وضحـك أبـو جلـدة ضحكـة ارتيـاح وسرور وقـال لكلبـه وهـو يمسـح عـلى ظهـره:

- برافو! برافو! معتوق

والتفـت إلي وهـو يقـول: انظـر إنـه كلـب ذكي لقـد مـزق الصحـف لأنـه يكـره السياسـة!

* * *

السياسة؟؟

«أبـو جلـدة» يفهـم السياسـة؟؟! حتـى كلبـه «معتـوق» يفهـم السياسـية فلأجـرب الخـوض معـه في هـذا الموضـوع فيبـدو لي أن الرجـل غـير عـادي.

قلـت: وهـل أنـت مطلـع عـلى السياسـة العامـة في فلسـطين؟؟ فضحـك ضحكـة عاليـة خلتهـا كهزيـم الرعـد ووضـع يـده عـلى كتفـي.

قال: كثيرون مثلك يظنون أنني لا فهم شيئا.

قلـت: أسـتغفر اللـه مـا عنيـت ذلـك؛ ولكنـه اسـتمر في حديثـه: انظـر.. انظـر إلى (معتـوق).

ونظرت إلى الكلب فوجدته يرسل نظرة إلى البحر الميت.

قلت: ماذا؟

قال: ألم تفهم؟ هذا البحر الميت منبع ثروة عظيمة في فلسطين خسرها العرب أو ضيعتها السياسة من العرب، وهذا معتوق يأتي كل يوم ينظر إلى الثروة الضائعة، وهو حزين.

قل لي هل في فلسطين عربي واحد حزين على ضياع هذا الكنز؟

قلت: لا والله، إنهم مشغولون.

وافترت شفتا الرجل عن ابتسامة جمعت بين السخرية والأسف، وصعد زفرة حارة من فؤاد مكلوم وقال: مساكين، شغلتهم الكراسي، شغلهم حب الظهور!

{إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا} صدق الله العظيم

* * *

دهشت وحقكم يا قرائي..

أبو جلدة الشقي المجرم الفار، الذي تطارده الحكومة يعرف كلام الله ويستشهد به {إِنَّ هَٰؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ} أسمعتم؟

ولكن بعضهم يا عم مشغول بالمظاهرات وقضايا الأحرار. أسدل الستار

فـما أحـب أن أقـول أكـثر مـن هـذا.

قلـت: ولكـن يجب أن نعرف عيوبنا لكي نتجنبها في المسـتقبل.

قـال: عيوبنـا لا تحـصى، ولكـن قـل لي أي خـير ترتجيـه أمـة قادتهـا موظفـون لـدى السـلطة؟! لقـد أعجبنـي ذلـك الكاتـب الـذي سـمى هـذه الحكومـة (حكومـة ذوات)؛ لأن الوظائـف العاليـة أصبحـت وقفـا عـلى (طبقـة الـذوات) المسـيطرين عـلى الحركـة الوطنيـة وقـادة المظاهـرات، عمـلا بقاعـدة (أطعـم الفـم تسـتحي العـين) ومـع ذلـك فـماذا اسـتفدتم مـن المظاهـرات.

فلت: أسـمعنا صوتنا للخارج.

قـال: أي صـوت مخنـوق هـذا الـذي بعثتمـوه! لم يسـمع العـالم غـير أنـين الجـرح وحشرجـة أرواح القتـلى!؟

كثـيرون مـن رجـالات الشـعب الإنجليـزي يعطفـون عـلى العـرب، ولكـن اسـمح لي أن أقـول إن العـرب لا يعطفـون عـلى أنفسـهم، فقـد ألهتهـم المصالـح الشـخصية والاحـتراب عـلى الكـراسي والزعامـة.

إنـك قـرأت ولا شـك كتـاب (أرب أوف غلاسـكو) للأسـتاذ الفاروقـي صاحـب جريـدة الجامعـة الاسـلامية.

لقـد صـدق الرجـل في كل كلمـة مـن كلماتـه، إنـه ضـد اليهـود السياسـيين عـلى طـول الخـط فهـل تريـد أكـثر مـن هـذه الصراحـة.

«ويعتقد أنهم يسعون للسيطرة على العالم فهم خطر يهدد البشرية»! وكثير من كبار الإنجليز يشاركونه في اعتقاده.

واسمع ما يقوله عن العرب: (العرب المالكون هم الذين يفسحون المجال أمام الزراع اليهود ولئن جاز لي أن أتجرأ على الانتقاد، فإني أقول لو أن العرب قاموا منذ بضع سنين خلت وعقدوا الخناصر فيما بينهم واتحدوا جميعا وكونوا من كتلهم المتحدة عصبة تجمع شملهم لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين صاحب الأرض والفلاح المزارع، إذن لكان ذلك أنفع لهم وأجدى، لأن كل عربي يتخلى عن أرضه، ويبيعها فهو خائن للوحدة العربية والقضية العربية معا.

* * *

هذا ما يقوله إنجليزي نبيل عنا.. أما نحن ماذا نقول عن أنفسنا.. إننا نقول عن السمسار «زعيم»! وعن الخائن «الوطني الكبير» ونغدق الألقاب على هؤلاء وهؤلاء ونحن واحسرتاه.. في دور الانتحار.

* * *

وجاء «معتوق» يعفر بيديه، وحفر في الأرض، فقال أبو جلدة: انظر لقد فهم الكلب مغزى الحديث فتأثر وثار على وطنه، فعفر وجهه بالتراب قل لي هل في عرب فلسطين من يتأثر أو يغار؟؟

الدَّرس القاسي

تململ «أبو جلدة» فظننت أنه يريد الانصراف ولكنه أخرج «علبة السجائر» وقدم لي سيجارة.

قلت: ممنون يا عم أنا لا أدخن.

قال: هذه أول مرة أسمع فيها أن شابا من شبان اليوم لا يدخن ولا يشرب أو لا يرقص فلا بد أنك «فلتة» من فلتات الطبيعة وهل لا تزور «تل أبيب»؟

قلت: لا

قال: اصدقني الخبر ألم تصاحب ولا فتاة واحدة يهودية؟؟

قلت: لا وحقك يا عم.

قال: عجيبة شبان العرب منصرفون بكليتهم إلى «الحب المختلط» أي «الجو - أراب» ومنغمسون في حمأة المدنية وأنت كما يلوح لي شاب لا تزال في عفرة الشباب وميعة الصبا، فإن كنت كما وصفت لي فأنا أهنئك لأنك ذو إرادة قوية.

* * *

أشعل سيجارته ثم التفت إلي وقال:

«أظن أن الأهالي مشغولون الآن بحركة الانتخابات»

قلت: نعم.

قـال: ولا بـد أن الأحـزاب قـد تزايـد عددهـا والنعـرات العائليـة قـد بعثـت مـن قبرهـا.

قلت: نعم.

قـال: ولكـن عـلام يتقاتـل القـوم! إنهـم يحتربـون عـلى قيـد ثقيـل يغـل أعناقهـم أفـلا يبـصرون؟!

معتـوق؟ تعال يا معتوق؟

ووضـع أبـو جلـدة في رقبـة كلبـه حبـل الفـرس وأراد ربطـه، احتـج الكلـب بالنبـاح وظـل يقـاوم حتـى تخلـص مـن صاحبـه. التفـت إلي وقـال:

أرأيـت أن «معتـوق» يـأبى أن يوضـع الحبـل في رقبتـه فيغضـب لكرامتـه هـل فينـا مـن يغضـب لكرامتـه مثـل «معتـوق»

قلـت: إنـك عـلى مـا يظهـر تحـب معتـوق كثـيرا ولا بـد أنـك دربتـه عـلى هـذه الخصـال الحميـدة

قـال: أقسـم لـك إننـي مـا علمتـه شـيئا مـن هـذا ولكنهـا الطبيعـة أوجـدت حـب الحريـة في كل قلـب وجعلـت الكرامـة لـكل نفـس لم تهـن.

زعيم؟!

لا يزال يسمو هذا الرجل في عيني شيئا فشيئا.

إنه ليس كلاما ولكنه أستاذ (برفسور) فتارة يحدثك في السياسة وطورا في علم الاجتماع؛ وحينا في علم النفس.

وأنت إذا جلست تستمع إلى حديثه خيل إليك أن الرجل يحمل رأس فيلسوف سألته: قل لي يا عم كيف تقضي أوقاتك هنا؟

قال: نتغنى بقول أمير الشعراء المرحوم شوقي بك:

أحل لنا الصيدان: يوم الهوى مها ويوم تُسَل المرهفات أسود

وأغلب أوقاتي أقسمها بين زوجتي الجديدة، والنظر في شؤون العصابة.

قلت: ألا تخشون انتقاض بعض أفرادها كما فعل «أبو دولة».

قال: لا أخشى ذلك وهب أنهم انتقضوا علي؛ فإن مصيرهم كمصير أبي دولة والأرض هنا تنبت رجالا غيرهم أقوى شكيمة، وأوفى عهدا.

* * *

الرجل زعيم، أرأيتم؟

الزعامة تخلق الرجال وتكون الشعوب.

إذن فالبروفيسور أبو جلدة فيه روح زعامة دكتاتورية عسكرية.

قفز «عفريتي» أمامي فجأة وقال: نعم.

قلـت: ولكـن يـا عفريتـي متـى أرى مثـل هـذه الزعامـة في بـلاد العـرب أو في فلسـطين؟ فتسـتمد الأمـة قوتهـا مـن الزعيـم؛ وتسـير في قضيتهـا (كالينـة) أو (موسـولونية) أو (هتلريـة) إلى الهـدف الأسـمى؟

قال: إنك تضحكني.

واختفى

* * *

التفتُّ إلى (أبي جلدة) وقلت مسـتفهما:

مـا هـي الغايـة التـي تسـعون إليهـا؟ وهـل حقيقـة مـا يقـال عنكـم مـن أنكـم تشـلحون النـاس العـرب واليهـود عـلى السـواء؟

قـال: غايتنـا أن نعيـش أحـرارا ويشـهد اللـه إني مـا لوثـت يـدي بـدم إنسـان إلا أن يكـون معتديـا أو طامعـا في جائـزة الحكومـة سـاعيا للقبـض عـلي.

قلـت: ولكنـك تقـاوم أقـوى دولـة في العـالم فهـل تظـن أنـك تسـتطيع المقاومـة طويـلا؟

قـال: هناك مثـل إنجليزي يقول (إذا وجدت الإرادة فتحت الطريق)

When There is a will There is a way

قلـت: وهذه الجنود المنتشرة حولكم؟

قال: أتعني جنود سـبايسر؟

قلت: نعم

قال: والله زمان! لقد ذكرتني؛ فالرجل (صديقي) أو أريد أن أبعث إليه بكتاب من زمان لم أكاتبه مش أصول!

وأخذ يسطر للمستر سبايسر كتابا رقيقا.

* * *

ناولني الكتاب وقال خذ واقرأ أنني مهما أجرمت لا أسيء إلا إلى أفراد قلائل. ولكن هنالك من يشلح الشعوب؛ ويقتل (الأسماء كثيرة) مسؤولية عند الله والناس

وسكت قليلا ثم أخذ يتمتم وينشد هذين البيتين:

قتل امرئ في غابة جريمة لا تغتفر

وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر

العرميط

«هـذا هـو العرميـط أقبـل» قالهـا وهـو يشـير إلى رجـل قـوي البنيـة، شـديد العضلات.

تفرسـت في وجـه العرميـط فأدهشـني منـه شـارباه الشـامخان إلى أعـلى.. ورأيـت فيهـما سـيماء الشـجاعة والحـزم والإقـدام.

قـال أبـو جلدة وهو يقدمني له: هـذا الصحفي الصغير يا عرميط!

قـال العرميـط: مرحـب ميـت أهـلا وسـهلا أرجـوك أن تكتـب عنـا إننـا لا نريـد مـضرة أحـد ولكننـا نريـد أن نعيـش أحـرارا في هـذا الخـلاء الواسـع.

قلت: حاضر.

فعـاد يقـول بصـوت منخفـض: الذنـب ليـس ذنبنـا، هكـذا أراد اللـه، وهكـذا كتـب علينـا.

قلـت: لقـد أصبـح النـاس يقـرأون عنكـم، كـما يقـرأون روايـات جونسـون وأصبـح صيتكـم منتـشرا في أرجـاء العـالم.

هـل أتاكـم حديـت المجنـون اليهـودي الـذي طـرق بعـض الأبـواب ليـلا في شـارع يافـا. لقـد أخـذ هـذا المجنـون يقـرع كل بـاب صادفـه بشـدة فـإذا مـا سـأل أهـل المنـزل عـن الطـارق قـال: افتحـوا أنـا (أبـو جلـدة) فأوقـع الرعـب في قلـوب كثيريـن وفـزع الحـي اليهـودي بـأسره ونـشرت الصحـف أن امـرأة أسـقطت جنينهـا مـن شـدة الخـوف وأغمـي عـلى كثيريـن.

فضحـك الاثنـان طويلا والتفت إلي أبو جلدة وقال:

- هـل نشرت الصحف قصة الرجل؟

قلت: نعم نشرتها.

قـال: ألم تترجموها للإنكليزية؟

قلت: لا أدري.

قـال: كان يجـب أن تترجـم هـذه القصـة، وتنـشر في الصحـف الإنجليزيـة حتـى يطلـع عليهـا الشـعب الإنجليـزي، ويـرى إلى أي حـد بلغـت الشـجاعة بشـعب اللـه المختـار! الـذي تريـد بريطانيـا أن تبنـي لـه وطنـا قوميـا في فلسـطين.

وقـال العرميـط: وهـل ينتظـر مـن هـؤلاء أن يبنـوا وطنـا، أو يشـكلوا شـعبا حيـا؟!

فقـال أبو جلدة: دعوني أقول الحق.

اليهـود أذكيـاء فهـم ينشـطون دائمـا في نـشر الدعايـة لقضيتهـم في الأوسـاط الإنجليزيـة ويصرفـون عـلى هـذه الدعايـة أمـوالا طائلـة.

أمـا لجنتكم التنفيذية!

أما مجلسكم الإسلامي!

أما هيئاتكم الوطنية!

تبـارك اللـه!! إنهـا تغـط في نومهـا، ولا أحسـبها تفيـق إلا بعـد أن تصبـح

فلسطين يهودية كما أن انكلترا انكليزية وعندئذ لا كراسي ولا ما يحزنون. تأكدوا أن الدعاية لها تأثير عظيم. وأن فلسطين في حاجة إلى مكتب الدعاية والنشر في لندن.

قلت: لقد بحت أصواتنا، وجفت أقلامنا ونحن نردد هذه النغمة ولكن مع الأسف لا حياة لمن تنادي.

قال: إذن ما هي وظيفة الزعماء في فلسطين؟

قلت: هم يا سيدي حلقة اتصال بين الشعب والحكومة.

قال: هل أفادوا الشعب؟

- لا أدري.

- هل أفادوا الحكومة؟

- ؟؟؟!

- اسمح لي أن أقول لك: جبان، ومن أعظم المصائب المنصبة على المعلمين هؤلاء الشبان الذين من ماركة -لا أدري- يجب أن تدروا، ويجب أن تهتموا بكل شيء وتواجهوا الصعوبات بعزم ثابت.

مسكينة فلسطين..

مسكينة في شبانها

مسكينة في زعمائها

مسكينة في شيوخها

وتطاير الشرر من عيني الرجل الجبار، ثم نادى على كلبه -معتوق- وأخذ يمر بيده على ظهره وهو مطرق ثم جاءني -معتوق- يتمسح في ويمد لسانه فوضعت يدي على ظهره وأنا معجب من الرجل وكلبه.

وأشار أبو جلدة للعرميط؛ فنهضا معا وصافحاني باسمين وركب أبو جلدة فرسة وهو يقول:

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام

لهذا أنا مُعجَب!

الرجل شجاع ...

لا مريـة في ذلـك. والشـجاعة إذا بـرزت كانـت سـلما للعظمـة وخصوصـا في زمـن فقـدت فيـه الشـجاعة.

ألم تسـمع النـاس يتحدثـون عـن «عنـترة» وأبـو زيـد والزيـر سـالم وغيرهـم مـاذا خلّـد هـؤلاء غـير الشـجاعة.

انتبهـت عـلى صـوت سـيارة قادمـة مـن بعيـد فـإذا بهـا سـيارة أصدقـائي فأسرعـت إليهـا وأنـا في شـبه ذهـول ولم أصـح إلا عـلى صـوت الأناشـيد والأغـاني المنبعثـة مـن حناجـر أصدقـائي.

وانطلقت بنا السـيارة عائدة إلى القدس.

وأنا أسـتعرض حديث «أبي جلدة» في ذاكرتي إلى أن جاءني عفريتي يقول:

- هل أعجبك الرجل؟

- جدا.

- ولهذا أنا معجب.

- ولكن اسـمع يا عفريتي: هل كنت في يقظة أم في منام؟

- قـال: لسـت أدري فقـد جمعتنـي بالرجـل ولـك أن تقـص الحكايـة عـلى قرائـك.

- قلـت: لا بـأس لعـل قـرائي يفهمونـني فقـد أغلـق عـلي وأصبحـت لا أحسـن التعبـير، فقـد أدهشـني- البروفيسـور- أبـو جلدة.

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

مشروع النشر الرقمي